

القسم الثاني

أخلاقيات الأطباء عبر العصور

الباب الأول

تاريخ الطب ومواكبة الحضارة البشرية

تاريخ الطب والألم قديم قدم البشر على ظهر المعمورة، وإن الطب مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع الحياة البشرية، كما تجدر الإشارة بأن الأمراض والعلل والآلام موجودة منذ الأزل.

وترافق وجودها مع ظهور الحياة في هذا العالم، فقد حافظت بعض الشعوب العريقة بحضارتها كمالصين والهند على عاداتهم القديمة المتعلقة بطرائق استعمال النباتات الطبية وعدتها المواد الأساسية في علم المداواة.

وقد خلط الإنسان في كثير من الأحيان بين الشفاء بواسطة الدواء والشفاء بواسطة السحر، أو بواسطة قوى تفوق سلطتها قوى البشر.

لقد تمكن الإنسان البدائي من أن يحمي نفسه إلى حد ما، من غوائل الحيوانات الضارية، أو الحشرات السامة وأن يعالج ما يصيب جسمه من جروح وكسور، لكن غالباً ما تنتابه الحيرة في كثير من الأمراض التي تصيبه دون سبب ظاهر، وتنتهي بالموت في كثير من الحالات وقد هداه تفكيره القاصر إلى أن يعزي هذه الأمراض الطارئة إلى غضب الأرواح الشريرة، أو إلى دخولها الجسم بقصد الضرر، أو إلى غضب الموتى أو الآلهة أو انتقاصها، لذلك غالباً ما لجأ في علاج هذه الأمراض إلى السحرة والمشعوذين الذين كانوا يستعينون بالتعاويذ والرقى والإيحاء لتخليص المريض مما أصابه،

لذلك يمكننا أن نقول إن القدماء قد اهتموا إلى الطب النفسي، ومارسوه على نطاق واسع لشفاء بعض الأمراض المستعصية، نعد منها: السرطانات ومتلازمة عوز النقص المناعي المكتسب أو ما يسمى بالإنكليزية (الإيدز) وبالفرنسية (السيدا).

كما يجدر بالذكر أن هنالك بعض القبائل البدائية في أواسط إفريقيا، كانت تلجأ إلى محاسبة الطبيب عند وفاة المريض، وذلك بإعطائه أحد سموم التجربة، فإذا نجا كان بريئاً وإلا عد مذنباً، أو أن يلقوه في الماء فإن طفا ثبت عليه الجرم، ويكون جزاؤه القتل، أما إذا بدأ بالغرق فإنهم يسرعون إلى إنقاذه وعدوه بريئاً.

ومن المعتقدات المشتركة التي انتشرت لدى الكثير من الشعوب القديمة، هو أن جسم الإنسان يتألف من جزئين: أحدهما مادي وهو الجسد، والآخر أثري لا تدركه الحواس أطلق عليه اسم الروح، وتفارق الروح الجسد في حالات النوم والغيبوبة والموت ولكنها تعود للجسم في الحالتين الأوليين ولا تعود إليه في حالة الموت.

كما كان الإنسان ولا يزال يخشى الموت والموتى، وهو يقوم بأداء واجبات التكريم لهم حباً بهم أو خوفاً من أذاهم، وبما أن الشعوب القديمة كانت تؤمن بعودة الروح للأموات، لذلك فإنها كانت تحاول الاحتفاظ بجسد الميت وهيئاته، كي تستطيع الروح أن تهتدي إليه وتعود للسكن فيه، ومن هنا نشأت فكرة تحنيط الأموات وتقديم ما يلزمها كما فعل قدماء المصريين.

وهناك شعوب أخرى آمنت بخلود الروح وفناء الجسد، لذلك يمكن للأرواح الهائمة أن تحتل أي جسد جديد بعد وفاة صاحبها، حيواناً كان أم بشراً، وهذا ما يعبر عنه بفكرة التناسخ.

إلا أن الأرواح كما يقول البيروني تترقى وتتقوم في الأجساد، بمعنى أنه لا يمكن للروح أن تسكن جسداً أدنى مكانة مما كانت فيه، وقد نشأت هذه الفكرة في بلاد الهند، ومنها انتشرت إلى بعض أنحاء الشرق الأوسط، أما إذا حلت روح إنسان في جسد حيوان ما، فهو نوع من العقاب الإلهي ويدعى المسخ.

الفصل الأول

صناعة الطب وبداية التفكير بها

لابد لأي باحث يريد الإطلاع على تاريخ الطب، منذ القدم حتى القرن الثالث عشر للميلاد، من أن يطلع على كتاب عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، الذي ألفه الطبيب موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم، المشهور بابن أبي أصيبعة، والمتوفى عام (649هـ/1252م). ولمؤلف هذا الكتاب منزلة رفيعة في نفوس المؤرخين، من عرب ومسلمين وأجانب. لقد أمتاز هذا الطبيب المؤرخ بوضوح التفكير ودقة الأسلوب إلى جانب الأمانة العلمية وصدق القول. فهو لم يذكر ترجمة لأحد أعلام الطب أو يروي قصة عنه إلا وأشار إلى المصدر الذي استقى منه ذلك. وقد سعت لإحصاء عدد من ورد ذكره في الأعلام فقد تجاوز الأربعمائة، بين حكيم وطبيب وفيلسوف، وهم ينتمون لشعوب وأديان مختلفة.

لقد أولع العرب منذ القدم بسماع قصص الشعوب القديمة ورواتها. ويقول المؤرخ اليمني أبو محمد الهمداني، صاحب كتاب الإكليل (إن من سكن الجزيرة العربية من العمالقة وجرهم وخزاعة، أحاطوا بعلم العرب العاربة، والفراعين العاتية، وأهل الكتاب. وكانوا يدخلون للتجارة فيعرفون أخبار الناس. وكذلك من سكن منهم الحيرة وجاور الأعاجم، من عهد بخت نصر، حووا على علم الأعاجم وأخبارهم).

لقد كانت أخبار تلك الشعوب غير موثقة، وأشبه ما تكون بالقصص والأساطير. وكانت تتكلم بصورة خاصة عن الملوك والأبطال والحروب ولغزوات والغنائم و الخسائر. ولم يكن للأطباء في ذلك الحين دور كبير في مجتمعهم، بل كانوا غالباً كهنة أو سحرة أو عرافين، أما المراجع التي اعتمدها ابن أبي أصيبعة فتقسم إلى:

وهناك شعوب أخرى آمنت بخلود الروح وفناء الجسد، لذلك يمكن للأرواح الهائمة أن تحتل أي جسد جديد بعد وفاة صاحبها، حيواناً كان أم بشراً، وهذا ما يعبر عنه بفكرة التناسخ.

إلا أن الأرواح كما يقول البيروني تترقى وتتقوم في الأجساد، بمعنى أنه لا يمكن للروح أن تسكن جسداً أدنى مكانة مما كانت فيه، وقد نشأت هذه الفكرة في بلاد الهند، ومنها انتشرت إلى بعض أنحاء الشرق الأوسط، أما إذا حلت روح إنسان في جسد حيوان ما، فهو نوع من العقاب الإلهي ويدعى المسخ.

أ- مصادر يونانية:

وأهمها كتاب الأسقف يحيى النحوي، الذي عاصر الفتح الإسلامي لمصر، وذكر فيه أسماء الأطباء القدامى من اليونان وكان آخرهم جالينوس. ثم كتاب إسحق بن حنين (ت 298هـ) عنوانه (تاريخ الأطباء والفلاسفة)، تكلم فيه عن الأطباء الذين ظهروا بعد جالينوس وكان منهم يونان ورومان وبيزنطيون.

ب- مصادر فارسية:

أهمها كتاب النهمطان ألفه أبو سهل الفضل بن نوبخت في عهد الرشيد، وكتاب الألوף لأبي معشر الفلكي (ت 272هـ). وقد تكلم كل منهما عن تاريخ العلم في بلاد فارس.

ج- مصادر لاتينية:

أهمها كتاب هراسيس، ألفه مؤرخ أسباني عاش بين القرنين (4-5م) ويتضمن تاريخ العالم القديم ودوله، من فرس ويونان ورومان وفراعنة وعبرانيين. وترجم في عهد الخليفة المستنصر في الأندلس (350-366هـ).

د- مصادر عربية:

إذا رجعنا إلى كتاب عيون الأنباء نجد أن مؤلفه قد روى كثيراً عن يوسف بن إبراهيم الحاسب، مولى ونديم إبراهيم بن المهدي، كما روى عن ابنه أحمد الذي ألف كتاب المكافأة. وروى عن فثيون الترجمان، وقسطا بن لوقا، وحنين بن إسحق، وعبيد الله بن جبرائيل بن يختيشوع، ويعقوب بن إسحق الرهاوي، وسليمان بن حسان المعروف بابن حجل، والقاضي صاعد الأندلسي...

ابن أبي أصيبعة بتصنيف آراء الأقدمين، فيما يتعلق
بنشأة الطب، إلى الأصناف الآتية:

الصنف الأول:

وفيه تنسب معرفة الطب إلى الأنبياء والأصفياء، ممن
خصتهم العناية الإلهية بالتأييد والحكمة. فالآلهة
عند المصريين هم: توت - إيبوس - أمحتب -
سرابيون - سرابيس.

- ويقول اليهود إن الله أنزل على موسى سفر
الأشفية. وقال بعض علمائهم إن الذي استخرج
صناعة الطب هو بوقال بن لامخ بن متوشالخ.

- وورد في الحديث الشريف أن سليمان بن داود كان إذا رأى شجرة نابتة سألها عن اسمها، فإن كانت لغرس غُرست، وإن كانت لدواء كُتبت.

- قالت الصابئة إن الشفاء كان يحصل في هياكلهم على يد كهانهم وصلحائهم، بعض بالرؤيا، وبعض بالإلهام. ومنهم من قال إنه كان يوجد الطب في هياكلهم مكتوباً، ولا يعرف من كتبه، ومنهم من قال إن النبي شيث تكلم عن الطب وإنه ورثه عن آدم.

- وقالت المجوس أن نبيهم زرادشت جاء بكتب تضم علوماً أربعة، زعموا أنها جُلدت باثني عشر جلد جاموس، ألف منها في الطب.

- وزعم قدماء سكان الرافدين من السورانيين والكلدانيين أو الكسدانيين وغيرهم من أصناف النبط، أنهم اكتشفوا مبادئ الطب، وأن هرمس الهرامسة، المثلث الحكمة، كان يعرف علومهم، ثم خرج إلى مصر وبث في أهلها العلوم والصنائع والأهرام. ثم انتقل العلم منهم إلى اليونانيين.

- وقال الأمير أبو الوفا، المبشر بن فاتك، في كتابه (مختار الحكم ومحاسن الكلم) إن الإسكندر المكدوني لما استولى على بلاد فارس، فبعد أن قهر ملكها دارا، أحرق كتب دين المجوسية، وعمد إلى كتب النجوم والطب والفلسفة فنقلها إلى اللسان اليوناني وأدخلها إلى بلاده، وأحرق أصولها.

الصنف الثاني: معرفة الطب عن طريق الحلم والرؤيا:

ذكر جالينوس، في شرحه لكتاب الإيمان لأبقراط (إن عامة الناس يشهدون أن الإله هو الملهم لهم في صناعة الطب من الأحلام والرؤيا، التي تنقذهم من الأمراض الصعبة. من ذلك نجد خلقاً كثيراً أتاهم الشفاء، بعضهم على يد سارافس Serapis، وبعضهم على أسقليبيوس Esclapios في مدينة أفيداروس Epidaurae ومدينة قو Cos ومدينة فزغامس Pergames وهي مدينتي).

وبالجملة فإن اليونانيين والصابئة وغيرهم، يجدون في جميع الهياكل الشفاء من الأمراض الصعبة، عن طريق الأحلام التي تأتي بالرؤيا.

- ويحكى جالينوس في (كتابه في الفصد) أنه كان يشكو وجعاً قديماً في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب، منذ كان غلاماً، وقد أمر في منامه مرتين بفصد العرق الضارب، الذي بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى. فلما أصبح فصد هذا العرق، وترك الدم يجري إلى أن انقطع من تلقاء نفسه، فكان ما جرى أقل من رطل، فسكن وجعه على المكان (أي في الحال).

- ويحكى أوريباسيوس، في كتابه الكبير، أن رجلاً عرض له في المثانة حجر عظيم، قال ودأوته بكل دواء مستصلح لتفتت الحجر فلم ينتفع البتة، وأشرف على الهلاك. فرأى في النوم كأن إنساناً أقبل عليه وفي يده طائر صغير الجثة، وقال له: إن هذا الطائر اسمه صفراجون Sparagon، ويكون بمواضع السباخات والآجام، فخذة وأحرقه وتناول من رماده حتى تسلم من هذه العلة.

فلما استخدم المريض هذه الوصفة الغريبة خرج الحجر من مثانته مفتتاً كالرماد.

- ويقول ابن أبي أصيبعة أنه نقل من خط علي بن رضوان، في شرحه لكتاب جالينوس في فرق الطب ما يلي:

(قد كان عرض لي منذ سنين صداع مبرح (ناجم) عن إمتلاء في عروق الرأس، ففصدت فلم يسكن. وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله. فرأيت جالينوس في النوم، وقد أمرني أن أقرأ عليه كتاب (حيلة البرء)، فقرأت عليه منها سبع مقالات، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال فنسيت ما بي من الصداع. وأمرني أن أحجم القمحدودة من الرأس. ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان).

القمحدودة: Inion حبة قذالية وحشية.

- وقال عبد الملك بن زهر في (كتاب التيسير) «إنني كنت قد اعتل بصري من قيء أفرط عليّ: فعرض لي انتشار في الحدقتين دفعة، فشغل بذلك بالي. قرأت فيما يرى النائم، من كان في حياته يُعنى بأعمال الطب (أي جالينوس) فأمرني في النوم بالاكتهال بشراب الورد. وكنت في ذلك الزمان طالباً قد حذقت ولم تكن لي حنكة في الصناعة. فخبّرت أبي، فنظر في الأمر ملياً ثم قال: استعمل ما أمرت به في نومك، فانتفعت به».

انتشار: Dilatation اتساع.

الصنف الثالث: معرفة الطب عن طريق المصادفة:

ذكر ابن أبي أصيبعة في هذا القسم ثلاث تجارب، رواها عن الطبيب أندروماخس الثاني، وهي التي جعلته يضيف لحم الأفاعي إلى الترياق. وفيما يلي موجز لتلك التجارب:

التجربة الأولى:

قال أندروماخس: كان يعمل عندي في بعض ضياعي حرّاثون. وكنت أبكر إليهم لأنظر ماذا يعملون. وكنت أحمل لهم معي الدابة التي تحت الغلام، زادا وشراباً، لتطيب نفوسهم. وفي أحد الأيام أخرجت إليهم بستوقة خضراء فيها خمر، مطبنة الرأس لم تفتح، مع زاد. فلما أدخل أحدهم يده مع كوز ليغرف من الشراب وجد فيه أفعى قد تهرأت. فامسكوا عن شرب الشراب وقالوا: إن ههنا في هذه القرية رجلاً مجذوماً، يتمنى الموت من شدة ما به، فنسقيه من هذا الشراب ليموت، فمضوا إليه بزاد وسيقوه من ذلك الشراب. فلما كان الليل انتفخ جسمه نفخاً عظيماً، وبقي إلى الغداة. ثم سقط عنه الجلد الخارجي، وظهر الجلد الداخلي أحمر اللون، ولم يزل حتى صلب جلده وبرأ. بستوقة: وعاء من الفخار.

التجربة الثانية:

كان لأندروماخس أخ مساح يدعى أبولونيوس. فخرج ذات يوم إلى بعض القرى ليقوم بعمله. ونزل يستريح وينام عنه أصل شجرة، وكان الزمان شديد الحر. فمرت به أفعى فنهشته، فانتبه مذعوراً وعلم بالأمر الذي لحقه، ولم يكن به على القيام طاقة ليقتل الأفعى، وأخذه الكرب والغشي. فكتب وصيته وضمنها اسمه ونسبه ثم استسلم للموت. وكان بالقرب منه ماء قد اجتمع في جوبة في أصل تلك الشجرة. وكان قد غلبه العطش، فشرب من ذلك الماء شرباً كثيراً. فلم يلبث أن سكن ألمه ثم برأ. فبقي متعجباً ولم يعلم ما كان في الماء.

ثم أنه أخذ عوداً من الشجرة وأقبل يفتش به الماء، فوجد فيه أفعتين قد اقتلتا ووقعتا جميعاً في الماء وتهرأتا...

جوبة: حفرة.

التجربة الثالثة:

كان لأحد الملوك غلام شرير قد آذى الناس بلسانه، فاجتمع بعض الوزراء والقواد على قتله، ولكن لم يتهياً لهم ذلك لمكانته عند الملك. فقال بعضهم اذهبوا واسحقوا درهمين أفيون وأطعموه إياه في طعامه أو شرابه، فإن الموت السريع يلحقه. فدعوه إلى بعض البساتين وسقوه الشراب مع الأفيون فلم يلبث قليلاً أن مات. فتركوه في أحد البيوت وختموا الباب عليه. وولجوا بعض الفعلة بحراسته، ومضوا إلى الملك ليعلموه بوفاة. فخرجت أفعى من بين حجارة البيت الذي فيه الغلام ولسعته. فسمع الفعلة صياحه فسأعده على فتح الباب فخرج سليماً وليس به قلبة.

قلبة: داء.

الصف الرابع:

1- اكتساب المعرفة الطبية بتقليد بعض الطيور أو الزواحف أو غيرها من الحيوان:

ذكر الرازي في (كتاب الخواص) أن الخطاف إذا وقع بفراخه اليرقان يمضي فيجىء بحجر اليرقان، وهو حجر أبيض صغير يعرفه، فجعله في عشه فيبراً صغاره. وإذا أراد الإنسان الحصول على ذلك الحجر طلى فراخ الخطاف بالزعفران، فيظن له قد أصابهم اليرقان فيجىء به. فيؤخذ ذلك الحجر ويلق على من به يرقان فينتفع به.

2- وكذلك أيضاً من شأن العقاب الأنثى، إذا تعيسر عليها بيضها وخروجها، وصعب حتى تبلغ الموت، ورأى ذكرها ذلك، طار وأحضر حجراً يعرف بالقلقل، يضعه في العش فيسهل على الأنثى بيضها. وسبب تسمية هذا الحجر بالقلقل لأنه إذا حرك تقلقل في داخله، فإذا ما كسر لن نجد فيه شيئاً. وأكثر الناس يعرفه بحجر العقاب، والناس يستعملونه في عسر الولادة.

3- ومثل ذلك أيضاً أن الحيات إذا أظلمت أعينهن، لكمونهن في الشتاء في ظلمة بطن الأرض، وخرجت من مكانها في وقت ما ترتفع حرارة الأرض، طلبن نبات الرازيانج، وأمرن عيونهم عليه فيصلح ما بها. فلما رأى الناس ذلك وجربوه وجدوا من خاصيته إذهاب ظلمة البصر إذا اكتحل بمائه.

4- وذكر جالينوس في كتابه (في الحقن) نقلاً عن أردودوطيس Herodote أن طائراً يدعى إيبس Ibis هو الذي دلّ على علم الحقن. وزعم أن هذا الطير كثير الاغتذاء لا يترك شيئاً من اللحوم إلا أكله، فيحتبس بطنه لاجتماع الأخلاط الرديئة وكثرتها فيه. فإذا اشتد ذلك عليه توجه إلى البحر، فأخذ بمنقاره من ماء البحر ثم أدخله في دبره فيخرج بذلك الماء الأخلاط المحتقنة في بطنه.

5- وحكى ديسقوريدس في كتابه أن المعزى البرية باقريطس Crete إذا رميت بالنبل، وبقيت في أبدانها، فإنها ترعى النبات الذي يقال له مشكطرامشير Dictame وهو نوع من الفوتنج، فيتساقط عنها ما رميت به، ولم يضرها شيء منه.

الفصل الثاني

طب الأسنان في التاريخ القديم

في هذه الحقبة الطويلة من الزمن يمكن أن نلاحظ أربعة أدوار:

- 1- دور التاريخ القديم ويبدأ من عام 500 ق.م إلى عام 400 ب.م. وفيه ثلاث حضارات متتابة: المصرية واليونانية والرومانية والأخيرة أطولها إلا أنها لم تترك لنا من تاريخ طب الأسنان إلا نذراً يسيراً.
- 2- دور العصور الوسطى والأزمنة الحديثة وتبدأ من عام 400 ب.م حتى أواخر القرن السابع عشر وليس فيه إلا ما أخذ من القرون الأولى.
- 3- دور القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر وفيه تطور لاحت فيه تباشير اختراعات متعددة في التعويض، كالأسنان الموتدة والخزف وولدت التقنية الحديثة في هذا الدور.
- 4- الزمن الحاضر: تقدمت فيه العلوم الفيزيائية والتقنية والجراحة والميكانيك (علم الحركة) تقدماً واسعاً وتطور فن طب الأسنان مع التقدم الاقتصادي والاجتماعي وأرسيت قواعده رويداً رويداً على أسس علمية وبخاصة على قواعد فيزيائية وحيوية.

الفصل الثالث

الطب في زمن الفراعنة

حضارة مصر القديمة من أعرق الحضارات وأغناها، ومنذ مئة عام، بعد أن تمكن علماء الآثار من حل لغز الكتابة الهيروغليفية، وانكبوا على قراءة آلاف النصوص التي أخرجت من رمال مصر أو اكتشفت على جدران مقابر الفراعنة.

ويمكن تلخيص مصادر معرفتنا لحالة الطب وطب الأسنان في مصر القديمة على الوجه التالي:

أولاً- الهياكل العظمية والموميات:

كان المصريون شديداً الحرص على الاحتفاظ بأجساد موتاهم وتحنيطها. وقد سمح الفحص الدقيق لهذه الموميات بأن يوصل إلى بعض النتائج الخاصة بالأمراض التي تترك أثراً في الجسد.

ثانياً- الآثار:

يلاحظ في صور المقابر ونقوشها وألواحها والصور على جدران الهياكل والمنازل رسوم للنباتات التي كانت موجودة في مصر القديمة.

ثالثاً- أنباء المؤرخين:

ومن أهمهم هيروdot وديودور الصقلي وقد زار مصر وكتب عنها.

رابعاً- البرديات الطبية:

ما هو البردي المصري: هو نبات مائي كان يزرع أولاً في أقسام الوجه القبلي ثم زرع في كثير من أجسام الوجه البحري ويمتاز بساق مثثة المقطع يبلغ طوله مترين، كان يستعمله الفقراء غذاءً ويصنعون سوقه سلات ونعالاً وقوارب خفيفة.

وأهم استعمالاته صنع القراطيس اللازمة للكتابة وقد وصف بليني طريقة تحضيره فقال: "تقطع أطراف سوقه ويشق كل منها نصفين بالطول وتوصل قشوره بغيره وتوضع في الشمس لتجف ثم تعطن وتدهن وتدق وتجفف مرة أخرى ثم تغرس بجوار بعضها البعض على هيئة الحصير وتدهن بالغراء ثم توضع طبقة منها متعاكسة فوق طبقة أخرى ثم تدق الطبقتان لتتفرطح القشور ويملاً الفراغ الذي يوجد بينهما ثم تكيّس وتجفف جيداً و تدهن بزيت الشرين أو ما يماثله ثم تصقل حتى تصير ملساء".

الفصل الرابع

الطب عن قدماء اليونان

أبقراط Hippocrates

ويعد بلا منازع من أعظم أطباء العالم في التاريخ. وقد سماه العرب أبا الطب ورفعوا نسبه إلى عائلة أسقليبيوس. ولد أبقراط في مدينة (قوص) ويسمىها ابن أبي أصيبعة (قو) وهي جزيرة صغيرة من جزائر اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان الطب في هذا الزمن لا يزال في أيدي أناس تنقصهم الروح العلمية وكثيراً ما يلجأون إلى السحر والشعوذة مستغلين سذاجة المرضى، وكان أبقراط متضلعا في العلوم الطبيعية فأدخل الطب في إطار علمي مستعملاً الفحص السريري والاستنتاج المنطقي السليم. وقد بنى علاجه على بعض مبادئ يمكننا أن نحصرها في النقاط الثلاث الآتية:

- مبدأ الحيوية.
- مبدأ الاخلاط.
- المبدأ الطبيعي.

ولقد وصف أبقراط وصفاً دقيقاً بعض الأمراض مثل السيل والتشنج النفاسي والصرع والحميات المختلفة والسحنة الأبقراطية (أي سحنة المشرف على الموت). وظل علم الجراحة الأبقراطي في بعض أقسامه مستخدماً حتى أواخر القرن الثامن عشر.

مميزات أبقراط

ومن أنبل مميزات أبقراط سمو أخلاقه في مهنته كطبيب فظل قسمه المشهور رمزاً للأخلاق الطبية الراقية وارتفاعها عن الاندماج في الشبهات التجارية وإليك هذا الذي سماه العرب عهد أبقراط:

عهد أبقراط

"إني أقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج، وأقسم بأسقليبيوس وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء وأشهدهم جميعاً على أن أفي بهذه اليمين وهذا الشرط وأرى أن المعلم لي في هذه الصناعة بمنزلة أبائي، وأواسيه في معاشي وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي وأما الجنس المتناسل منه فأرى مساو لأخوتي وأعلمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجر أو شرط، وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذي كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة.

وأما غير هؤلاء فلا أحفل به ذلك وأقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى. وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور فإمنع منها بحسب رأيي، ولا أعطي إذا طلب مني دواءً قتالاً ولا أشير بمثل هذه المشورة وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرجة تسقط الجنين. وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعاتي على الذكاء والطهارة. ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة لكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكل المنازل التي أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى وأنا بحاجة خارجة عن كل جور وظلم وفساد إرادي مقصود إليه في سائر الأشياء وفي تجمع النساء والرجال والأحرار والعبيد. وأما الأشياء التي أعينها في أوقات العلاج أو أسمعها في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً، فأمسك عنها وأرى أن مثالها لا ينطق به. فمن أكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها وأن يحمدّه جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً، ومن تجاوز ذلك كان بضده".

كان أبقرات يحب أن يتحدث عن مهنته كفن، واليوم وإن كانت مهنة الطب قد تغلغت جذورها في العلم إلى حد لم تصل إليه قط في زمن أبقرات إلا أن الأطباء ما فتئوا يجاهدون لتوثيق الصلة بين الطب والفن، لأن الطب يعالج الجانب العاطفي من حياة أنداده كما يعالج الجانب المادي. ولذلك قال أبقرات: «حينما ازدهر حب الإنسان لأخيه، ازدهر معه حبه للفنون».

وصية أبقرات

«ينبغي أن يكون المتعلم للطب في جنسه حراً وفي طبعه جيداً، حديث السن، معتدل القامة متناسب الأعضاء، جيد الفهم حسن الحديث، صحيح الرأي عند المشورة، عفيفاً شجاعاً غير محب للفضة، مألماً لنفسه عند الغضب ولا تاركاً له في الغاية، ولا يكون بليداً. وينبغي أن يكون مشاركاً للعليل مشفقاً عليه، حافظاً للأسرار... لأن كثيراً من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم... وينبغي أن يكون حلق الرأس معتدلاً مستوياً، ولا يلحقه ولا يدعه كالجمجمة ولا يستقصي قص أطراف يديه، ولا يتركها تعلو على أطراف أصابعه. وينبغي أن تكون ثيابه بيضاء نقيّة لينة، ولا يكون في مشيه مستعجلاً لأن ذلك دليل الطيش ولا متباطئاً لأنه يدل على فتور النفس وإذا دعي إلى المريض فليقعد متربعاً ويختبر منه حاله بسكون وتأن لا بقلق واضطراب فإن هذا الشكل والذي عندي أفضل من غيره».

مؤلفات أبقراط

كتب أبقراط عدداً كبيراً من المقالات الطبية، ونسب إليه تلاميذه عدداً أكبر من مؤلفات كتبوها بأنفسهم ولكنهم استوحوها من مبادئ أستاذهم الكبير ورئيس المدرسة التي اشتهرت باسمه، وقد كُنت هذه المقالات العديدة ما سماه مؤرخو تاريخ الطب المجموعة الأبقراطية ويتراوح عدد كتبها بين 72 و76 كتاباً في 53 موضوعاً. وكان لهذه المجموعة شأن كبير عند أطباء العرب فترجموها معظمها مع تفسير جالينوس لها في الغالب إما ترجمة مباشرة أو بوساطة السريانية. وأهم هذه الكتب: كتاب الأجنة وكتاب طبيعة الإنسان وكتاب الأهوية والمياه والبلدان. وكتاب الفصول وكتاب مقدمة المعرفة وكتاب الأمراض الحادة.

وكتب أبقراط في فن تثبيت الأسنان المتقلقة بخيوط من الذهب ووجدت أثناء الحفريات التي أجريت في تيناجرا Tanagra أعواض (أجهزة سنية) مصنوعة من صفائح تحيط بالأسنان السليمة والأسنان المتقلقة وتعوض أسناناً مفقودة، وكانت عبارة عن جبائر تشد أو تربط بالأسنان المجاورة عليها أسنان من العاج أو الذهب...

وله كتاب في أوجاع النساء وكتاب في الأمراض الوافدة وكتاب الأخلاط وكتاب الغذاء وكتاب حنوت الطبيب وكتاب الكسر والجبر.

جالينوس Galen

ولد جالينوس في برجامون Pergamon ويكتبها العرب برغمش في آسيا الصغرى عام 131 ب.م. أي بعد أبقرط بخمسة قرون. وكان والده مهندساً ماهراً وديع الطبع لطيف المعشر بعكس والدته الذي كان طبعها في منتهى الشراسة. ويقول جالينوس عنها: «وقد تعودت أن تعض خادمتها وكثيراً ما كانت تغضب على أبي مختلقةً بلا انقطاع المشاكل المفتعلة فكانت معاملتها أسوأ من معاملة كسانتيب لسقراط، فلما قارنت فضل والدي بأهواء والدتي، صممت على أن أكتسب فضائله وأن أتجنب مساوئها».

وقد سمى المهندس ابنه «جالينوس» الذي معناه المسالم أو الهادئ فصدق اختياره إذ وصل جالينوس إلى مرتبة عالية من الخلق ومن النبل فوفى بعهده بأن يقتفي آثار والده. ولكن ليس من المؤكد أن يكون قد نجح في أن يتخلص تماماً من الطبع الذي ورثه عن أمه، فقد تذكر بعض مناظراته العلمية بجو العواصف العنيفة التي كانت تهب من حين لآخر في منزل والديه.

ألف جالينوس عدداً كبيراً من الكتب الشاملة لجميع أقسام الطب في زمانه كما ألف كتباً فلسفية، وكان إعجابه بإيقراط عظيماً جداً ففسر أهم كتبه، واقتفى أثره فأبدى اهتماماً كبيراً بالفحص السريري مستنداً قبل كل شيء إلى الوقائع الملموسة، غير أن ثقافته الفلسفية كانت تغلب عليه أحياناً مما أوقعته في استنتاجات منطقية بعيدة عن الصواب، ومعظم موقعه من علم الأمراض مبني على النظريات الأبقراطية. وانجلت تجارب جالينوس عن بعض الاكتشافات المهمة ولا سيما في وظائف الأعصاب. كما أنه آمن بحركة الدم في الجسم. وكان يحشو الأسنان بالرصاص وسواه من المعادن.

وقد مدح أبو العلاء المعري كتب جالينوس ومدوني الطب فقال:

ورھط بقراط غاضوا بعد أن زادوا
به استغاث أولو سقم وعواد
لكنھا في شفاء الداء أطواد

سقياً ورعياً لجالينوس من رجل
فكل ما أصلوه غير منتقـص
كتب لطاف عليهم خف حملها

الفصل الخامس

الطب في الجاهلية

عرف عرب الجاهلية الطب معرفة جيدة فقد كان فيهم أطباء درسوا في فارس أو في بلاد الروم واستفادوا من خبرتهم بعقاقير بلادهم، فإن الحارث بن كلدة الثقفي سافر في البلاد و تعلم الطب بناحية فارس وتمرن هناك وعرف الداء والدواء وكذلك النضر بن الحارث بن كلدة نشأ طبيباً كأبيه وسافر في البلاد واجتمع مع العلماء بمكة وغيرها.

وقد وصف ابن خلدون طب البادية فقال (المقدمة): «وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، يتداولونه عن مشايخ الحي وعجائزه». إن الطبيب الجاهلي في البادية كان يداوي بما له من الذكاء ومن الاختبار من غير رجوع إلى قواعد ثابتة أو علم منظم.

و كان الجاهليون يجرون العمليات البسيطة لقطع شيء زائد في ظاهر البدن. وكانوا لا يعرفون من وسائل التعقيم إلا حمى السكين بالنار. وكانوا يداوون إن لم ينجح في المريض علاج بالكي ومنه المثل السائر (آخر الدواء الكي) والكي حرق بقعة من الجلد بوساطة حديدة محمية بالنار، بعدئذ يترك مكان الكي مفتوحاً. وعنوا بالجراح وتضميدها لكثرة حاجتهم إلى ذلك في الحروب، كما عرفوا كثيراً من أمراض الحيوان.

عرف العرب في الجاهلية عدداً من الأمراض منها:

-حمى الغب: التي تصيب المريض يوماً وتتركه يوماً.

-حمى الربع: التي تصيب ربعاً: تصيب المريض يوماً وتتركه يومين ثم تعود إليه في اليوم الرابع. -الزحير أو الزحار وهو استطلاق البطن بشدة، وتقطيع في البطن يمشي دماً.

- الأسر: احتباس البول.
- الحصر احتباس البطن أو الإمساك الشديد.
- السل أو السلال: وهو قرحة تحدث في الرئة.
- اليرقان.
- الكباد: وجع الكبد.
- القلاب: داء القلب.
- الممعود: هو الذي فسدت معدته فلم تستمرئ الطعام.

الفصل السادس

الطب النبوي

الطب النبوي هو الذي فعله وأمر به النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه وما اعتادوه في زمن النبي وليس المراد حصر الطب في ذلك. وهو يطلق على مجموع أحاديث تبلغ الثلاثمائة حديث تدور على حفظ الصحة، والأخذ بهذه الأحاديث مفيد جداً لأنها توصي بالاعتدال في كل شيء، وتأمّر بما يحفظ الصحة وتنهى عما يضرها، وفيها شيء من خير التطب وإليك بعضها على سبيل المثال:

تنظيف الأسنان:

لقد أمر سيد الخلق الصادق الوعد الأمين بتنظيف الأسنان بالسواك حيث يقول:

« لولا أخشى أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة ».

ولو فحصنا السواك لوجدناه يتكون كيماوياً من ألياف من السيللوز وبعض الزيوت الطيارة وبه راتينج عطري وأملاح معدنية أهمها كلورور الصوديوم وهو ملح الطعام وكلوريد البوتاسيوم وأوكزالات الكلس. فهو بذلك فرشاة طبيعية قد زودت بأملاح معدنية ومواد عطرية تساعد على تنظيف الأسنان. لذلك فإن أول من استعمل الفرشاة لحفظ صحة الفم هو الرسول الأعظم ولأول مرة في تاريخ حفظ الصحة الفموية أي نحو 622 م، ولهذا يعتبر السيد الرسول الأعظم أنه طبيب الأسنان الأول.

وإن الإنسان إذا أهمل تنظيف أسنانه سرى فيها الفساد والنخر وأفرزت السموم التي يمتصها الجسم، وتسبب أمراضاً كثيرة، وتصبح الأسنان صفراء اللون خشنة الملمس ولا سيما حول أعناق الأسنان وهو ما يسمى بالطرامة أو القلح أو الجير ويمنع الإصابة بالنساع قال النبي صلوات الله عليه:

«ما لي أراكم تدخلون عليّ قلحا.. استاكوا».

الهندسة الوراثية:

" تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس".
" تخيروا لنطفكم ولا تضعوها في الكفاء".
" تنكح المرأة لأربع: لما لها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاطفر بذات الدين تربت يداك".

الغذاء الصحيح:

" نعم الشراب العسل يعرّى القلب ويذهب برد الصدر".

الطب النفسي:

"إذا غضب أحدكم فليسكت".

الأمراض الانتانية:

"يغسل الإناء إذا ولغ فيه الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب أو أولاهن بالتراب".
" إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا نزل وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها".

الصحة العامة:

" ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه".
"بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه".
"نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع".

الفصل السابع

الطب في صدر الإسلام والحقبة الأموية

إن العرب لم يكونوا يعتنون في صدر الإسلام بشيء من العلم إلا بلغتهم وبمعرفة أحكام الشريعة، على الرغم من ذلك فإنهم أهتموا بصناعة الطب، فكانت تلك الصناعة موجودة عند نفر منهم غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها.

ونحن نلاحظ أن الطب في صدر الإسلام الأول كان يدور في الأكثر على الوقاية كما لاحظت ذلك عند سرد الأحاديث النبوية. أما الحث على التداوي فبارز جداً في كتب الحديث فقد جاء في الموطأ للإمام مالك:

قال رسول الله (ص): أنزل الدواء الذي أنزل الأدوية.

وروي عن الرسول ص أنه عاد رجلاً من أصحابه فقال له: «إنك مفؤود أنت الحارث أخا ثقيف فإنه يتطبب».

غير أن الحواضر كانت فيما يبدو منذ الجاهلية أرقى في التطبيب من البادية ومما قرب من البادية فقد كان عثمان بن عفان وموسى بن طلحة قد شدا على أسنانهما بالذهب.

اشتهر من الأطباء في مطلع الدولة الأموية: ابن أثال: وكان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين من أهل دمشق وكان خبيراً بالأدوية المضرة والسموم بعيداً عن كرم الخلق الطبي مخالفاً لوصية أبقراط.

أبو الحكم الدمشقي: وكان عالماً بأنواع العلاج والأدوية أميناً في علاجه ولذلك كان معاوية يستطبه ويعتمد عليه في معالجة نفسه وأهل بيته.

ولما مرض عبد الملك سنة 86هـ (795م) حماه أبو الحكم من شرب الماء وأعلمه أنه إذا شرب قبل نضج علاته توفي.. فاحتفى عبد الملك يومين وبعض اليوم الثالث ثم دعا بماء فشربه (قل لأنه استاء من سلوك ابنه الوليد حباله في مرضه) فمات.

تياذوق: اختص به الحجاج ولم يكن كثير الخبرة بالتطبيب وتوفي في أواسط سنة 90هـ (709م). وقد أسلم أيام الوليد بن عبد الملك الذي جاء إلى الخلافة في سنة 86هـ (70-5م) عرف المستشفى بمعناه الصحيح وعرفت القوانين الطبية الواقية والرحيمة فقد كان الوليد أول من بنى البيمارستان في الإسلام وجعل فيه الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق (جعل لهم رواتب) وكذلك أمر بعزل المجذومين وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق.

وقال للمجذومين: لا تسألوا الناس وكذلك أعطى كل
مقعد (عاجز عن السير) خادماً وكل ضرير (أعمى)
قائداً.

ومن هنا تجلت الخدمات العظيمة التي قدمها العرب
لعلم الطب وكيف أنعشوه بل بعثوه بعد نوم طويل
ثم طوروه وأضافوا إليه إضافاتهم ونظرياتهم الرائعة،
وأعطوا الطبيب الأهمية الجديرة بمهنته والاحترام
اللائق بخدماته.

وقال للمجذومين: لا تسألوا الناس وكذلك أعطى كل
مقعد (عاجز عن السير) خادماً وكل ضرير (أعمى)
قائداً.

الباب الثاني أعلام الأطباء العرب

الفصل الأول

حنين بن إسحق

ولد أبو زيد حنين بن إسحق سنة 194هـ في الحيرة (بالعراق) من أب مسيحي نسطوري كان يشتغل بالصيدلة، وقد تتلمذ حنين في بادئ الأمر ليوحنا بن ماسويه في مجرسة جنديسابور، ثم تركه لكي يدرس لعدة سنوات اللغة اليونانية حتى حذقها تماماً. وعندما حقق أمنيته قصد البصرة، كعبة اللغة العربية حينذاك، فأتقن فيها لغة الضاد، وبذلك أصبح حنين يجيد أربع لغات هي السريانية وهي لغته الأصلية ثم الفارسية واليونانية والعربية.

عاد إلى بغداد ودخل في خدمة ابن يختيشوع المتوفى سنة 214هـ (829م) طبيب المأمون الخاص الذي قربه من الخليفة والأوساط العلمية، فتمكن بذلك من الحصول على مخطوطات يونانية عديدة في الطب والفلسفة فترجم قدراً كبيراً منها، ورحل إلى كثير من البلاد في العراق وسورية وفلسطين ومصر (الإسكندرية) للحصول على نوادر المخطوطات التي تيسر له أن يحسن ضبط الترجمات التي تولاهها.

ولقد وافانا حنين في رسالته «في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس» بنشاطه المدهش في هذا الميدان ويؤخذ من قائمة وضعها حنين وأتمها أحد تلاميذه أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً، وترجم إلى العربية منها تسعة وثمانون.

وكان حنين حريصاً على تأدية المعنى بدقة فاهماً مقتضيات السر العلمي ووجوب الرجوع إلى أحسن المخطوطات. ويجانب ترجمته لكتب جالينوس نقل إلى العربية عدداً من كتب أبقراط.

ولم يكتف بالترجمة بل كان كذلك طبيباً ماهراً يمتاز بمعالجة أمراض العين كما كان مؤلفاً قديراً في موضوعات شتى، وقد أورد ابن أبي أصيبعة أكمل قائمة لمؤلفاته العربية، وهي تحتوي على أكثر من مائة كتاب في مختلف فروع الطب...

وقال عنه المؤرخ الفرنسي لوكير: «يعد حنين أقوى شخصية أنجبها القرن التاسع بل أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقاً فنطاق أبحاثه شاسع الأطراف إضافة إلى اختلاف أنواعها وامتيازها وأهميتها، وإضافة إلى المحن التي تحملها بشجاعة ونبل في بدء حياته العلمية وفي أثنائها، مما يبعث الاهتمام ويجذب القلوب إليه. وهو وإن لم يكن باعث النهضة في الشرق إلا أن أحداً لم يشارك في تلك النهضة مشاركة فعالة وراسخة ومثمرة كما فعل حنين».

الفصل الثاني

ابن أبي أصيبعة

ولد موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي في مدينة دمشق عام 600 للهجرة في بيت علم وأدب وقد اشتهر أبوه في عاصمة الأمويين بعلاجه للعيون وفتح عيونه على علم الطب. وبعد أن أتقن العلوم اللسانية بعد تتلمذه على علماء زمانه انصرف إلى تلقي علوم الطب في القاهرة ملتقى السبل وملتقى العلماء في الدولة الأيوبية، وتوفي في صرخد عام 668هـ.

ترك ابن أبي أصيبعة ذكراً خالداً وهو مؤلفه عيون الأنباء في طبقات الأطباء وقد ألفه لأمين الدولة وزير الملك الصالح وهو أحسن كتاب في التراجم لا يشبهه إلا كتاب أخبار الحكماء للوزير جمال الدين القفطي نسبة لقفط إحدى المدن وقد ولد فيها.

الفصل الثالث

أبو بكر الرازى

ولد أبو بكر الرازى محمد بن زكريا نحو 764م في الري في خراسان شرقي بلدة طهران حالياً و هناك في تلك المقاطعة الجبلية كان يعيش قوم أشداء فارعو الطول، شقر الشعر سماهم العرب (الثعالب الحمراء) وكان الرازى رجلاً منهم، طويلاً قوياً أشقر الشعر لم يمتاز في صغره عن رفقاءه في شيء بل كان اعتيادياً كالبقية دون أن تبرق بارقة تنبئ بنبوغة الفذ، واهتم كغيره بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية ثم تعاطى الموسيقى فبرع فيها نوعاً ما، وأصاب شهرة محلية كمغن وعازف، وظل على هذه الحالة حتى الثلاثين من عمره، ثم ضاق ذرعاً بهذا الفراغ الدائم وبهذه الرتابة، فعزم على تغيير حياته جذرياً، فأدار ظهره لمدينته الأم وانطلق سعياً وراء تحقيق أماله وطموحه.. إلى مدينة السلام بغداد عاصمة الدنيا قاطبة وهدف كل ذي قلب يتبغي الرفعة والسمو.

وبكل قواه وتصميمه اندفع نحو دراسة الطب. فتعلم على يد تلميذ من تلامذة حنين بن إسحق رئيس مترجمي كثير من الخلفاء وتعلم فن العلاج الإغريقي والفارسي والهندي والعربي الحديث. وعب منه عباً حتى إذا ما ارتوى قفل راجعاً إلى بلدته الأم ليعمل كمدير للمستشفى هناك وما لبث أن حصل على منصب رئيس الطبابة في المستشفى الكبير في العاصمة وفاز بمطلبه من بين الكثير من منافسيه وبهذا تفتحت أمامه أبواب قصور الخليفة ليعمل فيها كطبيب خاص، ولم يمض وقت طويل حتى ذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها، وطبقت الآفاق فزحف طلاب العلم إليه ليتعلموا فنون المعالجة والكشف والمعاينة الطبية.

لقد امتاز الرازي بمعارف طبية واسعة شاملة لم يعرف بها أحد قط منذ أيام جالينوس، وكان في سعي دائم وراء المعرفة عاباً ما شاء منها باحثاً عنها في صفحات الكتب وعلى أسرة المرضى وفي التجارب الكيماوية قاطعاً الآفاق من أجلها، موثقاً عرى المعرفة بينه وبين علماء عصره، وكان يزرع في نفوس تلاميذه الفضيلة وحسن الأخلاق مؤكداً لهم قدسية الطبيب، محارباً قولاً وعملاً كل أنواع الشعوذة في أي مكان كانت وفي أي صورة ظهرت. وأصبح هذا الفتى اليافع الذي طالما شنف الأذان بصوته البديع وعزفه الجميل طبيباً عظيماً وصديق الملوك والأمراء وحبیب الشعب وأباً للفقراء الذي كان يهبهم بعد العلاج مالاً في الوقت الذي كان يعيش فيه شخصياً في تواضع وبساطة لا مثيل لهما.

وفي عام 925م توفي الطبيب العظيم والفقر ينهش
في لحمه وهو الكريم الذي ضحى بأمواله وبجهد
في سبيل الآخرين، وعرف قبل موته المصير الذي
يعيشه في هذا العالم الشرير كل كريم أصيل، إذ
ضاقت نفوس زملائه به وبشهرته وبكرمه وأخلاقه
وتغلغت غيرتهم في قلوبهم من تفوقه عليهم،
ولم يصعب عليهم افتراء التهم السياسية بحقه.
علماً أن الرازي كان رجلاً ليس ككل الرجال، رجلاً حراً
في تفكيره وحرّاً في قلبه وحرّاً في تصرفاته فزوروا
التهم ضده حتى أبعدته الخليفة من بغداد ثم من
مدينته الأم (الري) وحرّموه من كل المناصب التي
كان يشغلها بكفاية نادرة.

مؤلفاته: كان الرازي غزير التأليف لا في الطب وحده بل في شتى الفنون والمعارف حتى أن البيروني صنف رسالة لإحصاء عناوين هذه المؤلفات في تبويبها وسمائها «فهرست كتب الرازي» ويحتوي هذا الثبت على المؤلفات الآتية:

56 مقالة في الطب - 33 في الطبيعيات - 7 في المنطق - 10 في الرياضيات والنجوميات - 7 في التفاسير والتلاخيص - 17 في الفلسفة - 20 ما وراء الطبيعة والإلهيات - 23 في الكيمياء - 11 في موضوعات شتى.

وأهمها: كتب الحاوي لصناعة الطب تحمل أقدم نسخة عربية منه في أوروبا تاريخ سنة 1282 بمخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (الناسيونال) وترجمه إلى اللاتينية (جيرار الكريموني) عام 1486 ونص رينو في ترجمته الفرنسية لكتاب إدوار براون (الطب العربي) على أن كتب الرازي التي ترجمت إلى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءاً.

والجزء الخامس منه بالتشريح والمعروف بالمنصوري - أهده
إلى المنصور بن إسحق وألي خراسان نشرت ترجمته في
طبعة ميلانو 1481م ثم نشره كونينج p. Koning مع
أجزاء من (كتاب الكنائس الملكي) لعلي بن عباس
والقانون لابن سينا في طبعة لندن سنة 1903 وترجمة
برونر W. Brunner إلى الألمانية في طبعة برلين 1900م.

ورسالتة في الجدي والحصبة ترجمها «فلا E. Vall» إلى
اللاتينية في طبعة البندقية عام 1498 وحاك جوبيل J.
Goupyl إلى اليونانية في عام 1548 وترجمه إلى
الفرنسية «جداك بوليه» J. Poulet في طبعة باريس
1866 ونشر جرينهل W. Greenhillwi نصه العلمي مع
ترجمة إنكليزية في طبعة لندن 1848 كما نشر النص
العربي مع ترجمة فرنسية عام 1896 وترجمة كارل أوبيتنز
K. Opitz إلى الألمانية في طبعة ليرج 1911.

وبودي أن أشرح كتبه إلا أن الالتزام بالمقرر جعلني أكتفي
بالأمور المهمة.

الفصل الرابع

ابن سينا

كان عبد الله بن علي من أهل بلخ في بلاد الأفغان عاملاً للدولة السامانية وكان يتولى من قبلها التصرف بأعمال قرية «خرمتين» من ضياع بخاري، وكانت إلى جوار مركزه في عمله قرية أخشنة. فكان يزورها ويتعرف إلى بعض أهلها، ومنها تزوج فتاة تسمى ستارة كما جاء في ابن خلكان، وفيها ولد لهما ابناهما الحسين الذي اشتهر بكنيته العلي (ابن سينا) وأصبح اسمه أشهر الأسماء بين فلاسفة الشرق وأطبائه، ثم أصبح لقب الشيخ الرئيس علماً عليه لا ينصرف إلى سواه.

ولد في سنة 370هـ (980م) وانتقل مع آله في السنة الخامسة من عمره إلى بخاري. وكان أبوه من طائفة الإسماعيلية وهي يومئذ صاحبة مذهب في الخلق والوجود وتفسير الشرائع من الفاظها والباطن من معانيها، فنشأ الحسين الصغير وهو يستمع إلى المناقشات الفلسفية والتأويلات الدينية في «النفس» و«العقل» وأسرار الربوبية والنبوة، وحفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره، وتعلم اللغة على أبي بكر أحمد بن محمد البرقي الخوارزمي وتعلم الفقه على إسماعيل الزاهد.

ومربيخارى أبو عبد الله النائلي الذي كان يعرف
بالمُتفلسف لاشتغاله بالمنطق والرياضة، واستنزله
الوالد في منزله عسى أن ينتفع الناشئ النجيب
بعلمه.

واستتم الفيلسوف الصغير كل ما وجدّه بين يديه من
علوم الحكمة والمنطق والرياضة، فبلغ فيها الغاية وهو
في الثامنة عشرة من عمره، وكان في أيام طلبه لا
ينام ليلة بطولها ولا يلتفت بالنهار إلى عمل غير
القراءة والتحصيل. واتفق وهو دون الخامسة عشرة
أنه أطلع على بعض مراجع الطب فتعلق بها وعكف
على قراءتها وقال: «إن علم الطب ليس من العلوم
الصعبة» فكان يعتمد على نفسه في درسه تارة
ويراجع أبا سهل المسيحي وأبا منصور الحسن بن
نوح على ما جاء في بعض الروايات تارة أخرى.

فلم يبلغ السابعة عشرة حتى ترامت شهرته بالتطبيب والتعليم في الآفاق الشرقية، وجاءه المنقطعون لهذا العلم يسألونه ويقرأون عليه، وكان يعلمهم ويعالج المرضى حبا للخير والاستفادة للعلم لا للتكسب وجمع الحطام، وعالج الأمير نوح بن منصور وهو في السابعة عشرة فشفاه وأصاب حيث أخطأ مشاهير الأطباء، فاستدناه الأمير وأذن له في الإطلاع على دار كتبه «وكانت ذات بيوت كثيرة، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض» فرأى من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط وظفر بفوائدها و عرف مرتبة كل رجل في علمه. وتولى أعمالاً جلية في الدول الشرقية فلم تشغله عن شيء من مألوفه في التحصيل أو الكتابة أو اللهو والسماع، فكان يصرف أعمال الدولة بالنهار ويجلس للتدريس والكتابة في الليل... «وإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيئ مجلس الشراب بالآلة».

وتمت لابن سينا هذه الأمنية - إن صح أن تسمى أمنية،
لأنه مات في نحو السادسة والخمسين بالسنين
الشمسية، وحفلت حياته بالحركة والعمل، كما
حفلت باللهو والخطر. وما لبث أن غلبه المرض على
الخوف والحذر فنفض يديه من الدنيا «واغتسل وتاب
وتصدق بما معه على الفقراء ورد المظالم على من
عرفه وأعتق ممالিকে وجعل يختم كل ثلاثة أيام
ختمه. ثم مات». ولعله لم يسلم من الوشاية في
مرض وفاته إن صح أنه مات محبوساً كما جاء في
بعض الروايات وكانت وفاته يوم الجمعة من شهر
رمضان سنة ثمان و عشرين وأربعمائة ولم يجاوز
بحساب السنين الهجرية الثامنة والخمسين.
وقد خوطب في ذلك فقال:

«إنه يحب الحياة عريضة قصيرة ولا يحبها ضيقة
طويلة».

كتابه الأساسي في الطب هو القانون في الطب وهو أكبر موسوعة طبية وصلت إلينا من القرن الوسطى، ونشر في طبعات ميلانو 1473 وبادوا 1476 والبندقية 1482، ثم أعيد طبعه حتى بلغت طبعاته عشرين مرة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ونشر نصه العربي في روما سنة 1593م. وإليك نماذج عما يخص طب الأسنان في القانون:

فبين ابن سينا أن حركة الإطباق يجب أن تكون بعضل نازلة من علو تشنج إلى فوق والفاغرة بالصد والساحقة بالتوريب، فخلق للإطباق عضلتان تعرفان بعضلتي الصدغ وتسميان ملتفتين...».

وتكلم عن الوقاية فقال: من أحب أن تسلم أسنانه يجب أن يراعي ثمانية أشياء:

* أن يتحرز من تواتر الطعام والشراب في المعدة لأمر في جوهر الطعام وهو أن يكون قابلاً للفساد.

* ومنها أن لا يلح على القيء وخصوصاً إذا كان ما يتقيأ حامضاً.

• ومنها أن يتجنب مضغ كل علك وخصوصاً إذا كان حلواً كالناطف والتين العلك.

ومنها أن يديم تنقية ما يتخلل الأسنان من غير استقصاء وتعد إلى ما يضر بالعمور وباللحم الذي بين الأسنان فيخرجه أو يحرك الأسنان.

* ومنها اجتناب أشياء تضر الأسنان بخاصيتها مثل الكرات فإنه شديد الضرر بالأسنان واللثة.

* أما السواك فيجب أن يستعمل بالاعتدال ولا يستقصى به استقصاء يذهب ظلم الأسنان وماءها ويهيئها لقبول النوازل والأبخرة الصاعدة من المعدة وتصير سبباً للخطر، وإذا استعمل السواك باعتدال جلا الأسنان وقواها وقوى العمر ومنع الحفر وطيب النكهة بالسواك ما فيه قبض ومرارة.

كان ابن سينا (370-428هـ)/(980-1037م) واضحاً ودقيقاً في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: (الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تآكل وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه وتقليل المادة المؤدية إلى ذلك). ونلاحظ أن هذا مبدأ أساسي لمداواة الأسنان المحافظة Conservative Dentistry وذلك بإعداد الحفرة إعداداً فنياً ملائماً. بعد رفع الأجزاء النخرة منها. ثم ملؤها بالمادة الحاشية المناسبة التي تعوض الضياع المادي الذي تعرضت له السن. مما يعيدها بالتالي إلى أداء وظيفتها الغريزية من جديد.

أما عن المواد الحاشية التي استخدمها الأطباء العرب
القدامى فهي عديدة منها المصطكي وتسمى أيضاً العلك
الروحي (Pistacia Lentica) وهي نوع من أنواع الصموغ
التي من صفاتها أنها بيضاء، ناعمة، طيبة الرائحة، فيها
لدونة، تميل إلى المرارة. وحول طريقة استخدامها فقد
شرح أبو الحسن الطبري الذي عاش في القرن الرابع
الهجري ذلك في كتابه (المعالجات البقرائية) فقال:
"يستعمل المصطكي فيسدون الثقة به، وبأن يذوب
المصطكي ويعجن ثم يعلمون منه شكلاً على استدارة
الثقب فيجعلونه فيها ويمرون على الفاضل من المصطكي
حديدة محمأة".

وقد عرف الأطباء العرب القدامى الحشوات المصبوبة ولكنهم
استخدموا لصنعها عظام الحيوانات أو العاج عوضاً عن
الخلايط المعدنية اللاصدة ويشرح هذه الطريقة أبو
الحسن الطبري فيقول:

"ومن الأطباء من ينحت من عظام الفيل جسماً «مُدَّ مَلَجاً»
عريض الرأس لطيفاً فيهدمونه في الثقبه".

أما في الحالة التي ينفذ فيها النخر داخل طبقات السن ويؤدي إلى انكشاف اللب والتهابه، وبالتالي حصول الألم الشديد. فقد أعطى الرازي (251-213هـ) (865-925م) التشخيص التفريقي الصحيح إذ قال: "لوجع في السن. إذا كان في العصبه حس بالوجع غائراً وفيه شيء شبيه بالضررس واشتكى معه الفك". وفي حال حدوث التمثوت اللبي وهو المرحلة القصوى من التهاب اللب حيث يصبح اللب كتلة سوداء مؤلفة من نسيج متخربة، وينعكس ذلك على تاج السن فيصبح لونه رمادياً بصورة تدريجية، فإن أين سيناً يفرق بين هذا العرض وتغير لون تاج السن لأسباب أخرى، منها تراكم الترسبات القلحية الكثيفة عليه فيقول إن ذلك: "قد يكون لتغير لون ما يركبها من الطلاوة فيحدث قلع وربما تحجر في أصول السن، تحجراً يعسرُ قلعه، وقد يكون لمادة رديئة تنفذ في جوهر السن وتتغير فيها أو يفسد لونها إلى باذنجانية ونحوها من غير أن يكون عليها قلع".

وفي مجال مداواة الأسنان اللبية (Endodontic Dentistry) الأسنان المتأكلة يُذاب زرنِخ أحمر بزيت ويُغلى ويقطر منه في أصل الضرس وأكّاله. ونلاحظ أن هذه المادة ما تزال تستخدم حتى يومنا هذا في المعالجات اللبية وبشكل واسع.

كما لجأ الرازي إلى طريقة تحنيط اللب هي مداخله تتضمن فتح حجرة اللب ثم وضع بعض المواد الكاوية بتماس مع النسيج اللبي مما يؤدي إلى إماتته وحفظه في حالة عقيمة ويتبع ذلك زوال الألم بطبيعة الحال. ويصف الرازي ذلك التحنيط بقوله: "إذا اشتد الوجع فبخر فم العليل ينفع، فإن لم يسكن فاثقب وسط السن بمثقب دقيق وقطر فيه الزيت المغلي مرات".

كما يؤكد ذلك ابن سينا بقوله: "كثيراً ما يحتاج إلى ثقب السن بمثقب دقيق لينفس عنه المادة المؤذية وتجدر الأدوية نفوذاً إلى قعره".

وفي موضع آخر يشرح ابن سينا هذه الطريقة فيقول: "تؤخذ مسلة تُحمى وتُغمس في ذلك وتنفذ في تجويف أنبوب متهدم على ما حواليه شمع أو عجين أو شيء آخر يحول بين السن وما حواليه من الأسنان والعمور، وقد يُقطر أيضاً في الأنبوب الدهن المغلي". ويستخدم ابن سينا بعد ذلك مادة الكافور كمادة حاشية ويصفها بقوله: "وقد جرب الكافور في الحشو فكان نافعاً ويمنع زيادة التآكل ويسكن الألم". ولا يفوته أن يوصي عند استخدام المادة الحاشية فيقول:

«ويجب أن يرفق ولا يحشى بعنف وشدة فيزيد في الوجع». وفي مجال تجريف النخر والأجزاء المتموتة من السن استخدم الأطباء العرب القدامى الأدوات القاطعة اليدوية مثل:

المثقاب: يستخدم لفتح حجرة اللب وتخفيف الضغط عنها.
المبرد: لإزالة الأجزاء النخرة الظاهرة من السن وتنعيم جدران الحفرة وصقلها.

المجرف: لتجريف العاج المتلين داخل حفرة النخر المسلة لوضع المواد المهدئة والكاوية داخل السن المؤوفة.

الإزميل: أداة يدوية لإزالة الأجزاء المينائية المتخربة وتسوية جدران الحفرة.

ونلاحظ أن بعض هذه الأدوات ما يزال يستخدم حتى وقتنا الحاضر من قبل أطباء الأسنان في مجال المداواة. وهكذا فقد كان للأطباء العرب القدامى دور كبير في ترسيخ وتثبيت المفاهيم الأساسية لمداواة الأسنان عبر العصور ربما قدموه من إسهامات جلى في هذا المجال مما يجعلنا نقدر محاولاتهم الدؤوبة والحثيثة في تقدم فن طب الأسنان.

الفصل الخامس

أبو القاسم الزهراوي

أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى نحو 1013م طبيب البلاط عند الحكم الثاني. وقد بلغت الجراحة العربية خاصة والجراحة في القرون الوسطى عامة ذروتها عن طريق هذا الطبيب العبقرى واسمه باللاتينية Abulcasis أي الزهراوي، نسبة إلى مسقط رأسه الزهراء في الأندلس، أشهر كتبه وأهمها كتاب «التصريف لمن عجز في التأليف» وفي اللاتينية Medical Vade Micum في ثلاثين فصلاً وقد ترجم إلى اللاتينية في طبعة البندقية سنة 1497 ثم في طبعتي ستراسبورج سنة 1532 وبالسنة 1542م والجزء الخاص منه بالجراحة، كان أساساً للتعليم الجراحي في أوروبا لبضعة قرون، وقد نشر نصه العربي مع ترجمة لاتينية في طبعة أكسفورد سنة 1778م. وظل هذا الكتاب كتاباً مدرسياً للجراحة قروناً عديدة في مدرستي سالرنو ومونبلييه وغيرهما من مدارس الطب المتقدمة.

وأما أهم فصوله فهو الفصل الأخير الذي تكلم فيه عن الجراحة ويشتمل على صور توضيحية لآلات الجراحة (أكثر من مائتي آلة جراحية) كان لها أثرها الكبير فيمن أتى بعده من الجراحين وبخاصة الغربيين. شرح الأسباب التي دعت به إلى الكتابة في هذا الموضوع مع ذكر آلات الجراحة مصورة. وذكر أبو القاسم في كتابه أصنافاً من الإبر وخيوط الجراحة.

وتكلم عن جراحة الأسنان فشرح وصور مقاشط تنظيف الأسنان من القلح أوجدها هو نفسه تعد غاية في الإتقان ومنها ما يستعمل حتى أيامنا، وكلاليب (جمع كلاب) لخلع الأسنان وذكر عملية صنع الجسور لتثبيت الأسنان الضعيفة وذكر عملية نشر الأسنان الناتئة، وتشبيك الأضراس والأسنان بخيوط من الفضة والذهب، كما أوجد آلات لقطع اللحم الزائد في اللثة وشرح أساليب العمل وطرائق المعالجة.

وذكر الاختلاطات الناتجة عن أمراض الأسنان وأتى على ذكر النواسير الفموية الناتجة عن أمراض الأسنان وأفاتها. وكان يوصي بكي النواسير بمكاو ذات رؤوس تتناسب سعتها مع سعة لمعة الناسور إذا لم تكف المعالجة، وكان يلجأ إلى تعرية العظم وتجريف قسمه المؤوف الذي سبب بقاء الناسور ومما جاء في توصياته في موضوع الأسنان قوله «يجب مكافحة أمراض الأسنان بشتى الوسائل».

وقد اشتمل كتاب التصريف للزهراوي على صور من آلات لقلع الأضراس وأصولها أو لجردها وتنظيفها ونشر الأسنان الناتئة وتشبيك الأضراس والأسنان بخيوط من الفضة والذهب كما أوجد آلات لقطع اللحم الزائد في اللثة وشرح أساليب العمل وطرائق المعالجة. واشتهر بين العرب من برع في طب الأسنان وقلعها حتى قال شاعرهم الصفي الحلبي في قلع ضرسه:

الحسين القلاع من ضرسى
وجاء لقلع ضرسك بالمحال
وسلط كلبتين على غزال

قد ذقت منه ما ليس يقلعه
لحى الله الطبيب فقد تعدى
أعاق الطبي عن كلتا يديه

وذكر ابن بطلان في كتابه دعوة الأطباء أشياء عن طب
الأسنان لتنظيف الأسنان وقال في ما يضر الأسنان ما
نصه:

وأعلم أن الحلواء مضرّة بالأسنان، مبثرة للغم واللسان،
لا سيما إذا أتبعته بالماء البارد فإن المأمون شكّا وجع
أسنانه إلى طبيبه جبريل فقال له: يا أمير المؤمنين
امتنع عن شرب الماء البارد بعد الرطب أي التمر-
والسكر فقال: ويحك يا جبريل لولاهما لما أردتك وأي
لذة تبقى للسان إذا امتنع الإنسان عن الماء البارد
والحلواء، ومن الرسائل المشهورة في هذا الفن
رسالة للشيخ أحمد الحنفي الحصبوني سماها ما
يضر الأسنان وسائر بدن الإنسان وقد يستدل من
آيات بعض الشعراء والبحث في أسباب قولها على ما
كان عليه طب الأسنان من تقدم عند العرب من ذلك
ما قيل في ثنيتي عمر بن ربيعة المسودتين بعد ما
ضربته ثريا بظاهر كفها.

ثريا: جاء في كتب الأدب إن ثريا وهي بنت عبد الله، استخف بشأنها عمر بن أبي ربيعة وكانت تختم بأصابعها العشر فضربته بظاهر كفها فأصابته الخواتم ثنيتيه العلويتين وكادت أن تقلعها وخاف أن يسقطا فقدم البصرة فعولجتا له فثبتتا واسودتا وغيره بذلك أحد الشعراء فقال:

ما بال سنئك أم ما آل كسرهما أهكذا كسرا في غير ما بأس
أنفحة من فتاة كنت تألفها أم نالها وسط شرب صدمة الكأس

كان أطباء الأسنان العرب القدماء إذا نظروا إلى الأسنان ورأوها خالية من النخر والتآكل والمرض وكان صاحبها يشكو ألماً شديداً نسبوا هذا الألم إلى تهيج الأعصاب وكانوا يشددون على تنظيف الأسنان بالسواك وعلى إخراج الفضلات التي تعتبر من أساليب المعالجة قبل التفكير بإخراجها، يجب أن يكون قلعها آخر سبيل في معالجتها بعد استنفاد جميع الوسائل لحفظها، لأن المادة نبيلة وأصيلة في الجسم فلا يجوز التضحية بها لأقل سبب.

وقال شاعر في استخراج فضلات الطعام من بين
الأسنان:

إن السواك ليستحب سنة ولأنه مما يطيب به الفم

لم تخش من حفر إذا أدمنته به يسيل من اللهاة البلغم

لهذه الأسباب خلدنا ذكرناه في مؤتمرنا العربي لطب
الأسنان وجراحة الفم المنعقد في دمشق من 20
إلى 25 نيسان 1964 بإصدار طابع بريدي يحمل
صورته.

وفي ختام حديثنا عن أبي القاسم فقد تقرر أن قائمة
الأدوات الجراحية التي ذكرها ووضحها بالرسوم كانت
عونا كبيراً لجراحي أوربة الذين قاموا بإصلاحات مهمة
في علم الجراحة.

الفصل السادس

ابن النفيس

إن أعظم فيزيولوجي (عالم بوظائف الأعضاء) في القرون الوسطى برمتها والرائد الذي مهد الطريق أمام وليام هارفي، هو علاء الدين بن أبي الحزم الدمشقي القرشي الملقب بابن النفيس، ولد سنة 1210 وتوفي سنة 1288م، وكان أعظم الناس في عصره حتى سموه ابن سينا الثاني، ومن أهم ما يميز عبقريته ثقته بنفسه وعمله، لأنه لم يلق بالاً كثيراً للقدماء ولم يعتبر نظرياتهم إلا ليستانس بها، وكان قاسياً في نقده إياهم.

انتقل إلى القاهرة وابتنى فيها داراً وفرشها بالرخام، ولم يكن متزوجاً فأوقف داره وكتبه وكل ماله على البيمارستان المنصوري. ومن أجمل ما يحكى عنه أنه دخل مرة الحمام فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مشلح الحمام واستدعى دواة وقلماً وورقاً. وأخذ في تصنيف مقالة في النبض ثم عاد ودخل الحمام وأكمل تغسيله.

يقول الدكتور يوسف شخت أصبح ابن النفيس الإمام الأول لهارفي الطبيب البريطاني الشهير الذي خطا في المسألة خطوة جديدة وكشف سنة 1628 الدورة الدموية الكبرى من البطن الأيسر إلى الشرايين ومنها إلى الأوردة ثم البطن الأيمن.

ألف ابن النفيس مؤلفات عديدة أهمها (شرح تشریح القانون) وقد ورد في مقدمة هذا الكتاب ما يدل على أمانته بإرجائه كل رأي ونظرية إلى صاحبها، كما دلت هذه المقدمة على استقلاله في التفكير وعدم اعتماده على آراء من سبقه إلا على أساس الدرس والملاحظة والبحث وقد قال في أحد الموضوعات في هذه المقدمة:

وأما منافع الأعضاء فإنما يعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه».